

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الكهف

هي سورة مكية، تدور آياتها وموضوعاتها حول «الإيمان والمادية». وكل ما فيها يكشف جوانب من إعجاز القرآن، ونبوة محمد ﷺ، وهي تبدأ بقوله سبحانه:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ﴾ (١)

والمعنى: ﴿الْحَمْدُ﴾ هو الوصف بالجميل الثابت ﴿لِلَّهِ﴾ تعالى. والمراد من هذه العبارة: الإعلام بمضمونها للإيمان، أو الثناء على الله به، أو هما معًا.

هو الله: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ﴾ أي: فيه ﴿عِوَجًا﴾ أي: اختلافًا وتناقضًا.

وكان هذا الكتاب..

﴿قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (٢) ﴿مَنْ كَثُرَتْ فِيهِ أَبَدًا﴾ (٣)

والمعنى: ﴿قِيمًا﴾ أي: مستقيمًا كل ما فيه، عاليًا على سائر الكتب. وقد أنزل الله القرآن على محمد ﴿لِيُنْذِرَ﴾ الكافرين، ويخوفهم به ﴿بَأْسًا﴾ عذابًا ﴿شَدِيدًا﴾ في الدنيا والآخرة ﴿مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾ أي: من عنده.

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ به أيضًا ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، الذي يزكي النفس، ويسعد العباد ويصلح البلاد. يبشرهم ﴿أَنَّ

لَهُمْ ﴿عند الله﴾ ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الجنة. كما يشرهم بالإقامة الدائمة في الجنة.. ﴿مَكِينِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: مقيمين في ذلك النعيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء.

ثم بين الله مَنْ يندرهم محمد ﷺ بهذا القرآن، فقال تعالى:

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ﴿٤﴾

أي: ﴿وَيُنذِرَ﴾ بهذا القرآن، ويخوف بما فيه من آيات العذاب.. الكافرين ﴿الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ كمشركي العرب، الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله، وغيرهم كاليهود والنصارى. وذلك.. لأن هؤلاء:

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ﴿٥﴾

يعني: ليس لهم بقولهم ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: لون من علم ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ كذلك أي علم.

﴿كَبُرَتْ﴾ عظمت وساءت ﴿كَلِمَةً﴾ أي هذه المقولة ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ لا من عقولهم؛ إذ ليس عندهم بها من علم يدفعهم إلى قولها. وحقيقة.. ﴿إِنْ﴾ أي: ما ﴿يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ يكذبونه.

هذه هي حقيقة الكافرين، وحقيقة أقوالهم، فلا تهتم يا محمد، ولا تغتم من أجل عدم إيمانهم.

﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿٦﴾

أي: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَخِيعُ نَفْسِكَ﴾ مهلكها ﴿عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ﴾ بعد توليهم وبعدهم عنك ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ وهو القرآن ﴿أَسَفًا﴾ أي: مهلك نفسك غيظًا وحزنًا؛ لعدم إيمانهم.

يا محمد، هؤلاء غرتهم الحياة المادية، وفتنتهم عن الإيمان.. فلا تحزن لعدم إيمانهم، ولا تشغل عن دعوتك.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿٨﴾

حيث: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والبحار وخلافه ﴿زِينَةً لِّهَا﴾ يتمتعون بها. وذلك ﴿لِنَبْلُوهُمْ﴾ أي: لنختبر الناس، ونكشف عن إيمانهم بوحداية الله وقدرته، وليظهر ﴿أَيُّهُمْ﴾ أكثر إيمانًا، و ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فنجازيه وننعم عليه برضواننا. والعاقل من عرف زوال هذه الأرض، وفناء زينتها، ولم يكفر، ولم يطغ بسبب ذلك.. حيث ﴿إِنَّا لَجَاعِلُونَ﴾ ومصيرون ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ من زينة وخلافه ﴿صَعِيدًا﴾ ترابًا ﴿جُرُزًا﴾ لا ينبت شيئًا.

هذا.. ولأنهم ليسوا عقلاء: فلم يفهموا ذلك، وفتنوا بزينة الحياة الدنيا ومادياتها، فكفروا، وصاروا أسوأ عملاً.

ولما سأل أهل الكفر النبي ﷺ عن أصحاب الكهف، قال تعالى:

﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَن أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾

والمعنى: لا تظن ﴿أَن أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾ الذين أقاموا فيه، مدة طويلة ﴿وَالرَّقِيمِ﴾ اللوح الذي كتبت فيه أسماءهم ﴿كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا﴾ الدالة على قدرتنا شيئًا ﴿عَجَبًا﴾ أي: غريبًا عجيبيًا.

حيث إن هناك من الآيات الدالة على قدرتنا.. ما هو أعجب منه: كخلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب والنجوم، وغير ذلك.

اذكر يا محمد لقومك ملخص قصة أهل الكهف..

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءِئِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ نَبْعًا أَيْ الْحَزِينِ أَحْصَى لِمَا لِسُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

أي: اذكر ﴿إِذْ أَوَى﴾ وقت أن لجأ ﴿الْفِتْيَةُ﴾ الشباب، خائفين من الظلم والطغاة

﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ فرارًا بدينهم من بطش هؤلاء الكافرين.

﴿فَقَالُوا﴾ في مناجاة صادقة لله ﴿رَبَّنَا إِنَّا﴾ أنت وحدك، وليس غيرك ﴿مِنَ لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ تصلح بها شأننا، وتسترنا بها عن قومنا، وتحفظنا بها من الهلاك ﴿وَهَيَّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وموقفنا هذا ﴿رَشْدًا﴾ حتى نكون بسببه من الراشدين الناجين، فاستجبنا لدعائهم، وفعلنا ما فيه صلاح أمرهم.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم ﴿فِي الْكَهْفِ﴾ لا يسمعون أحدًا، ولا يزعجهم أحد ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾.. حتى مرَّ الزمان، وتغيرت الأحوال، وباد الطغاة، وتحسنت الظروف.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيقظناهم من نومهم الطويل ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: ليظهر ويشاهد، وليحصل للناس معرفة ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين، ساعة بعثهم وتيقظهم ﴿أَحْصَىٰ﴾ إحصاءً دقيقًا ﴿لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أي: مدة لبثهم، ومكثهم نيامًا في هذا الكهف. دعك يا محمد من عناد قومك، واختلاف المختلفين حول مدة بقاء أهل الكهف في كهفهم.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (١٣) أي: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ نتلو ﴿عَلَيْكَ﴾ في قرآن يتلى، ويتعبد به إلى يوم القيامة ﴿نَبَأَهُمْ﴾ قصتهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق، الذي لا خفاء فيه، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ كانوا من أشرف الناس، قابلين لمعرفة الحق، ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وشهدوا له بالوحدانية، واعترفوا له بالقدرة، ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ أي: يقينًا وثباتًا على دينهم، وفي هذا دليل على أن الشباب هم أكثر الناس قبولًا للهدى، واستعدادًا للعمل به.

ولمَّا كان هذا في أنفسهم فقط، فقد أظهره، وقالوا كلمة الحق، وأعلنوا إسلامهم؛ حيث يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ (١٤) ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (١٥)

يعني: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قويناها على قول كلمة الحق ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بين يدي ملكهم، حينما أمرهم بالسجود للأصنام. ﴿فَقَالُوا﴾ له ثلاثة أشياء:

الأول: لن نسجد لها، وإنما نسجد لله ﴿رَبَّنَا﴾ الذي هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومن فيهما، وما فيهما، فهو المستحق لذلك وحده.

الثاني: ﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ﴾ أي: غيره ﴿إِلَهًا﴾ نعبده.

الثالث: لو قلنا ذلك ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا﴾ أي: حينئذ قولاً ﴿شَطَطًا﴾ أي: بعيداً عن الصواب، موغلاً في الكفر.

ولمّا انصرفوا عن مجلس الملك، قالوا على قلوبهم ثلاثة أشياء أيضاً:

الأول: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ أخطؤوا خطأ كبيراً و ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ أي: غيره ﴿ءَالِهَةً﴾ يعبدونها.

الثاني: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هَلَا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ﴾ على عبادتهم لأصنامهم ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بحجة واضحة، إنهم لن يأتوا بها أبداً.

الثالث: لقد افتروا على الله الكذب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لا أحد أظلم منه، ولذلك: فهم أظلم الناس. ولذلك: ينبغي البعد عنهم..

وقد ابتعدوا عنهم بالفعل، ولمّا ابتعدوا قال تعالى حكاية عنهم:

﴿وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ (١٦)

أي: قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ﴾ وما دمتم قد ابتعدتم عنهم، ﴿و﴾ تركتم ﴿مَا يَعْبُدُونَ﴾ من دون الله.. فإنهم لن يتركوكم وما أنتم عليه، شأن الطغاة مع أهل الحق دائماً، وما دمتم قد فارقتموهم بأرواحكم في عبادتهم، ففارقوهم بأجسادكم في الإقامة معهم.

لذلك ﴿فَأَوُوا﴾ أي: التحنوا ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ البعيد عنهم، واختبئوا فيه؛ رجاء أن يَنْشُرَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ في الدنيا والآخرة ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ في إقامتكم بالكهف ﴿مَرْفَقًا﴾ تتعاشون عليه في حياتكم.

وهكذا، التجؤوا إلى الكهف واختبئوا فيه بعيداً عن قومهم وناموا. وأجاب الله

دعاءهم ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]. حيث قال:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرِّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ عَآيَتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (١٧)

يعني: ﴿وَتَرَى﴾ بعينك ﴿الشَّمْسَ﴾ أنها آية من آيات الله أيها الإنسان..!! حيث إنها كانت ﴿إِذَا طَلَعَتْ﴾ في الصباح ﴿تَزَّوُّرُ﴾ تميل ﴿عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ﴾ ناحية ﴿الْيَمِينِ﴾.

﴿و﴾ كانت كذلك ﴿إِذَا غَرَبَتْ﴾ آخر النهار ﴿تَقَرِّضُهُمْ﴾ تتركهم وتبتعد عنهم ﴿ذَاتَ﴾ ناحية ﴿الشِّمَالِ﴾، ﴿و﴾ كانوا ﴿هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في متسع من الكهف، مريح لهم.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي حدث آية ﴿مِّنْ عَآيَتِ اللَّهِ﴾ حيث أرشدهم ربهم إلى هذا الغار الصحي، الذي جعلهم فيه أحياء، محفوظة أجسادهم من البلى، طيلة هذه المدة.

وسبحان الله..!! هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين أقوامهم.. حقاً.. إنه ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

هذا.. ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أُنْقَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (١٨)

يعني: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ لو رأيتهم ﴿أُنْقَاطًا﴾ أي: مستيقظين، ﴿و﴾ لكن ﴿هُمْ رُفُودٌ﴾ نيام في الحقيقة.

﴿وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ حماية لأجسادهم. ﴿وَكَلْبُهُمْ﴾ معهم في الغار ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وهو الباب، وكأنه يحرسهم بحكم طبيعته.. ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أيها الإنسان، وهم على هذا الحال.. ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾

بعيداً عنهم ﴿وَلَمِلْتُمْ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ أي: خوفاً، وكأن الله حماهم بالرعب من أن يدخل عليهم أحد لو اقترب منهم.

وناموا - على هذا الحال - مدة من الزمان طويلة، لم يُبل لهم فيها ثوب، ولم تتغير لهم فيها صفة، وكانت هذه - من الله تعالى - آية.

وكما أنامهم الله عز وجل.. هذه المدة، وعلى هذا الحال. أيقظهم من نومهم، وبعثهم إلى الحياة مرة أخرى. يقول الله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (١٩)

يعني: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وكما أنماهم.. أيقظناهم؛ إظهاراً لقدرتنا على البعث والإعادة للخلق مرة أخرى. وكذلك ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾ فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عن حالهم ومدة نومهم في هذا الكهف.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ للباقيين ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في هذا الغار؟ ﴿قَالُوا﴾ له ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي: مدة قليلة. وكأنه لم يقتنع.. وكان إجابات غير ذلك طرحت. وأنهم الإجابة على هذا السؤال بتفويض العلم فيما لا علم لهم به إلى الله، حيث ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فاتركوا العلم لله، ولا تختلفوا حول ما لا يفيد. خاصة، وأنا جياع بعد هذا النوم، ونحتاج إلى الغذاء.

إذن.. ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ بنقودكم ﴿هَذِهِ﴾ وكانت من الفضة ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾.. ليفعل الآتي:

أولاً: ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ في محلاتها ﴿أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أي: أحل، وأطيب، وأرخص.

ثانياً: ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي: بطعام رزقاً من الله تعالى.

ثالثاً: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: ليكن هادئاً، وفي سرية وكتمان في تعاملاته، وذهابه

وإيابه.

رابعاً: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ﴾ ولا يعلمن ﴿بِكُمْ﴾ حالاً أو مكاناً ﴿أَحَدًا﴾ حتى لو انكشف أمره، وأمسكوا به، وحاولوا معرفة سره.

يلاحظ: أنها توصيات ذكية، حريصة، دقيقة، مهذبة، وفيها الكثير من أصول وقواعد التربية.

ثم عللوا هذا الحرص الشديد، والتوصيات الدقيقة بقولهم:

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ (٢٠)

يعني: إن هؤلاء القوم الذين يعبدون الأصنام، والذين فررنا منهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يطلعون على حالكم، ويعرفون مكانكم يأخذوكم ثم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: يتهموكم بالتطرف والإرهاب، ويقتلونكم رجماً بالحجارة، انتقاماً منكم، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ﴾ مرة أخرى ﴿فِي مِلَّتِهِمْ﴾ بالترغيب، أو التهيب.

﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا﴾ في الفرار منهم مرة أخرى ﴿إِذَا﴾ أي: إذا أمسكوا بكم ﴿أَبَدًا﴾؛ لأنهم سيعذبونكم حتى الموت.

كذلك ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿إِذَا﴾ أي: عدتم في دينهم مرة أخرى ﴿أَبَدًا﴾ ولو كان بالإكراه على ترك الإسلام.

وفهم من سيذهب لإحضار الطعام هذه الوصية جيداً، وصمم على التلطف مع القوم والاحتفاظ بالسر، مهما كان، ولكن؛ كان الزمان قد تغير وأهل الزمان قد تغيروا، وهم لا يشعرون؛ أليسوا نياماً، مئات السنين..؟

على كل حال: اطلع القوم عليهم، وعرفوا سرهم، وكانوا مسلمين، وكانوا يختلفون في أمر البعث.

وجاء أهل الكهف في وقتهم، وكان بعثهم آية، يقول الله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ (٢١)

أي: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما هديناهم للإيمان، وأنماهم في الكهف وبعثناهم ﴿أَعْرَضْنَا﴾ أطلعنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قومهم والمؤمنين. وذلك ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ جميعاً ﴿أَنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾. وليعلموا كذلك ﴿أَنَّ السَّاعَةَ﴾ القيامة ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وسيجازي كل إنسان فيها على ما قدم من خير أو شر.

وكان بعث أهل الكهف هذا، والعتور عليهم ﴿إِذْ﴾ أي: وقت أن كان قومهم ﴿يَنْتَزِعُونَ﴾ يختلفون، فيما ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في أمرهم، وهو البعث.. هل سيكون، أو لا، وإذا كان فللأرواح فقط، أو للأرواح والأجساد معاً..؟

وكان العتور على أهل الكهف: ليرتفع الخلاف وليعلم الجميع، أن البعث للروح والأجساد معاً.

هذا.. ومات أهل الكهف ﴿فَقَالُوا﴾ أي: قومهم ﴿إِنَّمَا عَلَيْنَا بُنْيَانٌ﴾ أي: سدوا عليهم كهفهم، واتركوهم على حالهم ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وبحقيقة حالهم. وهنا. ﴿قَالَ الَّذِي غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ أي: أمر القوم، وهم أصحاب الكلمة والنفوذ فيهم ﴿لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ يبنى على باب الكهف، يصلي فيه المسلمون.

وهكذا.. انتهى أمر أهل الكهف، وهو دليل واضح وحجة دامغة للماديين الملحدين، الذين ينكرون البعث والحشر والحساب.

وسيختلف الناس حولهم خلافاً لا فائدة منها، ولا طائل تحتها..

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارَ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٢٢) يعني: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي: بعض الناس عن عدد أهل الكهف إنهم ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ فقط ﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: البعض الآخر إنهم ﴿خَمْسَةٌ﴾ فقط ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

يقول ذلك هؤلاء وهؤلاء ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي: بدون علم حقيقي، يفيد شيئاً.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي البعض الثالث: إنهم ﴿سَبْعَةٌ﴾ فقط ﴿وَتَأْمَنُهُمْ﴾ ﴿كَلِمَةً﴾.

أقوال كثيرة لا علم بها عند قائلهم.

ولذلك ﴿قُلْ﴾ أنت أيها العاقل، الذي تفوض العلم إلى الله في مثل هذه الأمور الغيبية ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بَعْدَتِهِمْ﴾ وعددهم الحقيقي، حيث إنه ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ﴾ ويعلم عددهم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ممن رآهم ساعة استيقاظهم من نومهم في كهفهم، وهذا القليل ذهب، وذهب معه العلم بعددهم، ولذلك أيضًا ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ تجادل ﴿فِيهِمْ﴾ حالًا وعددًا ﴿إِلَّا مِرَّةً ظَهَرَ﴾ أي: بما جاء في القرآن عنهم فقط، ثم:

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ أي: أهل الكهف ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا تسأل عنهم أحدًا من أهل الكتاب، وفوض العلم فيهم إلى الله تعالى.

ولأن هذه القصة قد سأل المشركون النبي ﷺ عنها، بإيعاز من اليهود.. فقال لهم: «غداً أجيئكم»، دون أن يعلق ذلك على مشيئة الله، بقوله: «إن شاء الله»، وتأخر الوحي عليه ﷺ في ذلك، ثم نزل، لذلك يقول الله عز وجل لنبيه، تأديبًا وتعليمًا لأمتة:

﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ واذكر رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

في هذا النص ثلاثة آداب:

الأول: ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾ تريد فعله ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ على وجه القطع واليقين ﴿إِلَّا أَنْ﴾ تقول مع ذلك مؤمنًا به، أن ﴿يَشَاءَ اللَّهُ﴾ تحقيق ذلك، وإعانتى عليه.

الثاني: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ﴾ أي: قول «إن شاء الله» ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ ذلك عند قولك: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ متى تذكرت، ولا تتركها أي: تعليق تحقيق الأمر على مشيئة الله أبدًا.

الثالث: ﴿وَقُلْ﴾ إذا نسيت شيئًا ﴿عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي﴾ سبحانه ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا﴾ التصرف والنسيان ﴿رَشَدًا﴾ خيرًا وهدى.

وإذا كانوا قد اختلفوا حول مدة نومهم في الكهف وبقائهم فيه، فهذه هي المدة الحقيقية. قال الله تعالى:

﴿وَلِئَلَّيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾

أي: ناموا ﴿فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ من السنوات الشمسية، وهي تساوي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية.

هذا هو الحق الذي لا مرأى فيه.. ولذلك..

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾

يعني: ﴿قُلِ﴾ لكل المختلفين ﴿اللَّهُ﴾ وحده ﴿أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ في كهفهم، حيث إن ﴿لَهُ﴾ سبحانه ﴿غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: علم ما غاب فيهما.

سبحان الله ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمِعَ﴾ أي: ما أبصره، وأسمعه، لكل ما غاب وما حضر..!!

﴿مَا لَهُمْ﴾ أي لأهل السموات والأرض كلهم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: غيره ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولى أمورهم، ويصرف أحوالهم، كذلك ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ سبحانه ﴿فِي حُكْمِهِ﴾ وقضائه وقدره ﴿أَحَدًا﴾ من خلقه.

وهكذا.. انتهت قصة أهل الكهف، وذكر اختلاف الناس حول موضوعهم، وقصتهم؛ وقد ظهر الحق فيها، وقيلت كلمة الفصل ممن ﴿لَهُ﴾ سبحانه ﴿غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ولأن المشركين الذين سألوا عنها قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن نؤمن بك.. فاطرد من عندك من هؤلاء الفقراء، فقد قال الله لحبيبه عليه الصلاة والسلام: لا تلتفت إليهم، ولا تستجب لطلباتهم المتعنتة هذه..

﴿وَأَنْتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾

أي: ﴿وَأَنْتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ تلاوة تدبر، وعمل، وتبليغ

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ أحد أبدًا، فهو كتاب ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿و﴾ في ذات الوقت ﴿لَنْ نَحْدَ﴾ لنفسك ولا لغيرك ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: في غيره ﴿مُلْتَحِدًا﴾ أي: ملجأً تركن إليه، إن تركته وأهملته، وهذا الأمر الأول من الله تعالى - بعد القصة - للنبي ﷺ.

الأمر الثاني:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢٨)

يعني: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ احبسها وثبتها ﴿مَعَ﴾ هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أي: مداومين على الدعاء والعبادة في كل وقت ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ورضاه، سواء كانوا أغنياء أو فقراء، أصحاب أو ضعفاء. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: ولا تهملهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهي الاهتمام بأصحاب الشرف والثروة والزينة.

الأمر الثالث: فهو نهى للنبي ﷺ.

﴿وَلَا تُطِيعْ﴾ هؤلاء في دعوتهم لك بترك الفقراء، وطردهم من مجلسك، ولا كل ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ وشغل عن الدين بالدنيا ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وصار عبداً له ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أي: كانت أقواله، وأفعاله تفريطاً، وضياعاً في ضياع.

الأمر الرابع:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩)

يعني: ﴿وَقُلِ﴾ لمن أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه، وكان أمره فرطاً، ولأصحابه، كذلك، هذا القرآن هو ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو واضح، لا خفاء فيه، ولا غموض.

﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ منكم أن يؤمن بحريته وكامل اختياره ﴿فَلْيُؤْمِنْ﴾، ﴿وَمَنْ شَاءَ﴾ أن يكفر بحريته، وكامل اختياره ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾.

وبالمناسبة.. هذا جزاء الكافرين: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْظَّالِمِينَ﴾ الكافرين بالله ورسوله ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهَا سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها، من كل جانب. ﴿وَأِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من العذاب والعطش فيها ﴿يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ الزيت الحار الذي اشتد سواده من اللهب ﴿يَشْوَى الْوُجُوهَ﴾ عند اقترابه منها حقًا.. ﴿يَنْسُ الشَّرَابَ﴾ شرايبهم ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار لهم ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي: دارًا يقيمون فيها. ولما ذكر تعالى جزاء الكافرين ذكر عقبيه جزاء المؤمنين، فقال جل وعلا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (٣٠) أي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسله وكتبه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي أمر الشرع بها، والتي فيها صلاح البلاد، وإسعاد العباد.. نثيبهم ونجازيهم خير الجزاء حيث، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وهؤلاء آمنوا، وأحسنوا العمل، فلا نضيع جزاءهم.

ولكن ما جزاؤهم هذا..؟ يقول رب العزة:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٣١)

يعني: ﴿أُولَئِكَ﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿لَهُمْ﴾ عند ربهم خمسة أشياء:

- الأول: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: دور إقامة لهم، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.
- الثاني: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ﴾ أي من تحت غرفهم فيها ﴿الْأَنْهَارُ﴾.
- الثالث: ﴿يُحَلَّونَ فِيهَا﴾ بالحلي، وهي ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾.
- الرابع: ﴿وَيَلْبَسُونَ﴾ فيها ﴿ثِيَابًا خُضْرًا﴾ وهو أفضل الألوان، وأكثرها راحة للعين، وهذه الثياب ﴿مِنْ سُندُسٍ﴾ وهو الحرير الرقيق ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ كذلك، وهو الحرير السميك.

الخامس: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ منعمين، مستريحين، ممتعين.

حقاً.. إنه ﴿نِعَمَ الثَّوَابُ﴾ ثوابهم ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الجنة والأنهار، والثياب، وكل ألوان النعيم لهم ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي: داراً يقيمون فيها.

وبعد أن بين الله تعالى جزاء الكافرين، وجزاء المؤمنين؛ ليكفر مَنْ يكفر عن بيعة، ويؤمن مَنْ يؤمن عن بيعة، يقول للنبي ﷺ: واضرب لهؤلاء الماديين الأمثلة التي تبين لهم ضلالهم، وتعينهم - لو يفهمونها ويعقلونها - على الهداية. حيث يقول تعالى:

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ (٣٢)

يعني: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا﴾ يفيدهم لو كانوا يعقلون، وهذا المثل هو ﴿رَجُلَيْنِ﴾ أحدهما مادي كافر، والثاني مؤمن صالح.

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين ﴿مِنْ أَعْنَبٍ﴾ كثيرة، متنوعة الأصناف ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخيل على حواف البستانين، محيطاً بهما ﴿وَجَعَلْنَا﴾ كذلك ﴿بَيْنَهُمَا﴾ أي: بين البستانين ﴿زَرْعًا﴾ من جميع الأنواع، والألوان. حقاً.. تنسيق جميل، ومنظر بديع.

وكذلك إنتاج غزير، حيث يقول تعالى:

﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ (٣٣)

نعم.. ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا﴾ أعطت ثمارها كاملاً ﴿وَلَمْ تَظْلِمِ﴾ أي: تنقص ﴿مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم تنزل بها الإصابات، ولم تعثرها الآفات.

﴿و﴾ كان ريهما مريحاً، وماؤها غزيراً، حيث ﴿فَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ يروي هذه الزروع والأشجار. أيضاً:

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤)

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥)

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣٦)

أي: ﴿وَكَانَ لَهُ﴾ غير هذه البساتين والزروع ﴿ثُمَّ﴾ من مال يستثمره في وحدة أخرى غير الزراعة، كالتجارة، وغيرها أي: أوتي من كل زينة الحياة الدنيا، الشيء الكثير، وذات يوم، التقى بصاحبه الرجل الآخر، المؤمن الصالح، وأخذه ودخل به بساتينه، يطلعه على ما فيها، ويحاوره ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ خمسة أشياء، كلها غرور بسبب المادة، وزينة الحياة الدنيا، وهي:

الأول: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا﴾ أي: فماذا أفادك الإيمان، غير الفقر.

الثاني: أنا ﴿أَعَزُّ﴾ منك ﴿نَفَرًا﴾ حولي، وهم كثر يخدمونني، أي: فماذا أفادك الإيمان، غير العزلة والوحدة؟

الثالث: ﴿وَلَمَّا دَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ مع صاحبه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بكفره بالله ﴿قَالَ﴾ لصاحبه ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ حيث إنها من صنعي، وليست من صنع من تدعي أنه الإله الواحد.

الرابع: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كما تدعي، ولذلك: فليس هناك حساب ولا عقاب، فلا تمتنع بالدنيا، كيفما أريد، ومتى أريد.

الخامس: وعلى افتراض أن الساعة ستكون، وأرد إلى ربي ﴿وَلَيْنُ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ حينئذ ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ عنده ﴿خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ مرجعًا؛ لأن المنعم في الدنيا من أمثالي منعم في الآخرة، على عكس أمثالك.

حقًا.. إن ذلك منتهى الغرور، ومنتهى المادية، ومنتهى الكفر والاستهزاء.

ولم يتأثر صاحبه المؤمن، ولم يفقد ثقته بالله، ولم يبهز بما عليه هذا الكافر، بل:

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ لِجَلَاءِ ﴿٣٧﴾ لَنَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ﴾ المؤمن ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ خمسة أشياء أيضًا في

الجواب على ما قال:

الأول: ﴿أَكْفَرْتَ﴾ بالله الذي ﴿خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾؟

الثاني: ﴿لَيْكِنَّا﴾ أنا مؤمن أنه سبحانه ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ وحده ﴿وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

الثالث: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ رددت الفضل لله، و ﴿قُلْتَ﴾ عند إعجابك بها ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ كان، وما لم يشأ لم يكن، وقلت: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وأنت مؤمن به، لم تر فيها مكروها أبداً.

الرابع: ﴿إِنْ﴾ كنت ﴿تَرِنَ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فلا يغرنك هذا، وتحتقر غيرك؛ لفقره ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ﴾ يغير الحال، وتغيير الأحوال بيده، و ﴿يُؤْتِينَ﴾ بقدرته ومشئته ﴿خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ هذه.

الخامس: ﴿و﴾ أن يغير الحال أكثر وأكثر، فيدمر جنتك حيث ﴿يُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ أي: صواعق ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ تحرقها وتحرق ما فيها ﴿فَتُصْبِحُ﴾ بعد ذلك ﴿صَعِيدًا﴾ أرضاً ملساء ﴿زَلَقًا﴾ لا يثبت عليها شيء. ﴿أَوْ﴾ حيث ﴿يُصْبِحُ مَأْوَاهَا غُورًا﴾ أي: غائراً في الأرض، لا يمكن الوصول إليه، ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمُ طَلَبًا﴾ أي: حيلة أو وسيلة ترفعه بها.

وقد حقق الله توقعات هذا المؤمن..

﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقِلُّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَفْقَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْنَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٢) ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُمُ فِتْنَةً يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ (٤٣)

أي: هلكت ثماره وأمواله كلها ﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ أي: أحاط بها الهلاك من كل جانب وصدّم الكافر !! ﴿فَاصْبَحَ﴾ أي: صار ﴿يَقِلُّبُ كَفَّيْهِ﴾ حسرة وندماً عليها، و ﴿عَلَى﴾ ضياع ﴿مَا أَفْقَقَ فِيهَا﴾ من جهد وعرق ومال. ﴿وَهِيَ﴾ أمامه ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ خربة محترقة متهدمة ﴿وَيَقُولُ﴾ متحسراً ﴿يَلَيْنَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُمُ﴾ في ذات الوقت ﴿فِتْنَةً﴾ من أهل أو ولد أو عشيرة ﴿يَنْصُرُونَهُ﴾ في محنته ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الذي لا ناصر سواه، ولا كاشف الضر غيره.

﴿و﴾ كذلك ﴿مَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنْصَرًّا﴾ أي: ممتنعًا عن انتقام الله منه، وإهلاك جنته.

وهكذا عرفنا من هذا المثل: أن النصرة للمؤمنين على الكافرين وذلك في الدنيا، وهي تكون أيضًا للمؤمنين على الكافرين في الآخرة، يقول الله تعالى:

﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٤٤)

يعني: ﴿هُنَالِكَ﴾ في الآخرة تكون ﴿الْوَلِيَّةُ﴾ بمعنى النصرة للمؤمنين على الكافرين، أو ﴿الْوَلِيَّةُ﴾ بمعنى الملك، كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ﴿لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ سبحانه، وثوابه ﴿هُوَ﴾ عز وجل ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ من ثواب غيره، لو كان ثواب غيره يبقئ، وعاقبته ﴿هُوَ﴾ ومكافأته ﴿خَيْرٌ عُقْبًا﴾ للمؤمنين فهل فهمتم هذا المثل أيها الكفار الماديون؟ وهل تستفيدون منه.. فتؤمنون..؟
على كل حال هذا مثل آخر.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنِدًا﴾ (٤٥)

يعني: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ﴾ مثلًا آخر يفيدهم لو كانوا يعقلون..!! ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ في بريقها أمامهم، وخداعهم بها، وغرورهم بمتاعها، وكفرهم بسببها، فهي ﴿كَمَا أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى الأرض ﴿فَأَخْلَطَ بِهِ﴾ وشرب منه، وازدهر به ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ ثم استوى، ثم يسر، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ متكسرًا ضعيفًا ﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال، ولا يبقئ منه شيء.

وهكذا الدنيا، سريعًا ما يذهب خداعها، وينطفئ بريقها.

والعاقل من لا يفتن بها، ولا يكفر بسببها.

هذا، وإذا كان أعظم زينة في الحياة الدنيا هي المال والبنون، فهناك ما هو أعظم من ذلك ينبغي أن يتبه له كل عاقل، فلنقرأ قوله تعالى:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٤٦)

أي: إذا كان ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ﴾ هما ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ عند بعضهم يسعدون به، ويفخرون، ويتجملون، فإن ﴿الْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ﴾ وهي الإيمان بالله، ورسوله، وفعل الطاعات ﴿خَيْرٌ﴾ من المال والبنون ﴿عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ ﴿وَخَيْرٌ﴾ عند الناس ﴿أَمَلًا﴾ يأملون في نفعه ونتائجه، من نفع المال والولد.

ثم تعرض الآيات الكريمة أمام هؤلاء الماديين الكافرين، بعض مشاهد يوم القيامة تفيدهم لو كانوا يعقلون..!! حيث يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَيَوْمَ نُسِِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧)
يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿يَوْمَ﴾ القيامة حين ﴿نُسِِّرُ الْجِبَالَ﴾ من أماكنها، وتصير هباءً منبثًا، وتزول نهائيًا، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ﴾ وقتذاك ﴿بَارِزَةً﴾ ظاهرة، ليس عليها شيء من جبل، أو شجر، أو أي علامة.

﴿و﴾ قد ﴿حَشَرْنَاهُمْ﴾ جميعًا، الإنس والجن، والمؤمن والكافر ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ أي: نترك ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ دون أن نحشره في هذا اليوم.
وبعد الحشر - نجانا الله وإياكم - يكون العرض، يقول الله تعالى:

﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ (٤٨)

أي: ﴿وَعَرِّضُوا﴾ جميعًا ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ أي: مصطفين، ظاهرين، لا يختفي منهم أحد، ويقال للكافرين من باب التقرير لهم، والسخرية بهم: ﴿لَّقَدْ﴾ بعثناكم، و﴿جِئْتُمُونَا﴾ فرادى، ليس معكم مال ولا ولد، ولا نصير، ولا معين ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ضعافًا، لا تملكون شيئًا.

﴿بَلْ﴾ أكثر من هذا أنكم ﴿زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ تبعثون فيه؛ لأنه لا بعث بالمرة، كما كنتم تدعون.

ثم يوضع الكتاب للمؤمن في يمينه، وللكافر في شماله:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩)

نعم، ﴿و﴾ إذا ﴿وُضِعَ الْكِتَابُ﴾:

أولاً: ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من جزاء ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من كفرهم، وأعمالهم السيئة التي عملوها.

ثانياً: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تحسراً ﴿يَوَيْلَنَا﴾ يا فضيحتنا، وخسارتنا، وهلاكنا ﴿مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ﴾ الذي سجلت فيه أعمالنا ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ علينا.

ثالثاً: ﴿وَوَجَدُوا﴾ بأنفسهم ﴿مَا عَمِلُوا﴾ هـ ﴿حَاضِرًا﴾ مسجلاً في هذا الكتاب، دون نقصان له، أو زيادة عليه.

﴿و﴾ هكذا كتبت أعمالهم، وهكذا يكون عقابهم؛ حيث ﴿لَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

فهل فهمتم أيها الكفار الماديون هذه المشاهد..؟ وهل تستفيدون من عرضها عليكم فتؤمنون..؟

إذا كان هؤلاء الماديون يفتخرون ويتكبرون على فقراء المسلمين، بأموالهم، وأولادهم، وأعوانهم..!! فإن إبليس - من قبلهم - قد افتخر وتكبر على آدم ﷺ، بأصله، ونسبه، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]. فلما افتخر بذلك، وتكبر: فسق عن أمر ربه، وهلك، وهؤلاء يفتخرون ويتكبرون: ويفسقون عن أمر ربهم، وسيهلكون، يقول الله سبحانه:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٥٠)

يعني: ﴿و﴾ اذكر لهم ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ جميعهم ﴿أَسْجُدُوا﴾ سجود تحية وتكريم ﴿لِآدَمَ﴾.. ﴿فَسَجَدُوا﴾ كلهم لآدم؛ طاعة لأمر الله ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد؛ لأنه كان من الجن ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي: خرج عن طاعته.

ويلاحظ: أن إبليس ليس من الملائكة، وإنما شمله الأمر، لأنه كان معهم؛ بدليل: أن له ذرية - بنص الآية - والملائكة لا ذرية لهم، وهو مخلوق من نار، والملائكة من نور.

ثم يقول ربنا للماديين الكافرين: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾ لكم ﴿مِنْ دُونِي﴾ تطيعونهم وتفعلون ما يأمرونكم به من الفساد والمعاصي ﴿وَهُمْ لَكُمْ﴾ في ذات الوقت ﴿عَدُوٌّ﴾ دائم.

حقاً.. ﴿يَبْسُ لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين اتخذوا إبليس عن الله ﴿بَدَلًا﴾.

فهل فهمتم أيها الكفار الماديون موقف إبليس، وضياع حاله..؟ وهل تعتبرون بما حدث منه، وله، فتؤمنون..؟

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى: هذا الذي اتخذتموه وذريته أولياء من دوني تعبدونهم وتطيعونهم:

﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ ﴿٥١﴾

يعني: كيف تتخذون إبليس وذريته أولياء من دوني وهم عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئاً، و ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لعدم حاجتي إليهم فضلاً أنهم كانوا حين خلقهم في العدم، ﴿وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أيضاً يستطيعون، بل ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ لكم من إبليس وذريته ﴿عَضُدًا﴾ مساعداً ومعيناً لي في أي شيء، فكيف تتخذونهم إذا آلهة لكم وأولياء؟

هؤلاء الذين ليس لهم علاقة بخلق السموات والأرض وأنفسهم، الذين عبدتموهم من دون الله؛ اعلّموا جيداً أنه لا حول لهم ولا قوة في الآخرة، كذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ ﴿٥٢﴾

يعني: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يَقُولُ﴾ الله تعالى للكفار ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ أي: إبليس وذريته، والأصنام، وغيرها ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا أنهم آلهة؛ لينقذوكم مما أنتم فيه من العذاب، فينادونهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لعجزهم عن ذلك.
﴿و﴾ هكذا ﴿جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ وبين آلهتهم المزعومة ﴿مَوْبِقًا﴾ حاجزًا من الهلاك والخيبة والخسران.

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٥٣)
أي: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ من بعيد، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَعَوْا لَهَا تَفَيطًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢] ﴿فَظَنُّوا﴾ وتيقنوا ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ أي: مخالطون لها، وواقعون فيها.

﴿و﴾ يبحثون عن مهرب لهم، ولكن ﴿لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا﴾ وعن الوقوع فيها ﴿مَصْرِفًا﴾ يعدلون سيرهم إليه وهروبهم فيه؛ لأن الملائكة تسوقهم إلى جهنم سوقًا، أبعد كل هذا البيان.. تتخذون إبليس وذريته، وآلهتكم المزعومة أولياء من دوني..!!
فكروا في ذلك إن كنتم تعقلون..!!

وبعد هذه المناقشات الطويلة مع الكفار، وبعد هذه الأدلة الواضحة على فساد معتقداتهم ومواقفهم، يبين العليم الحكيم نعمة الله على خلقه، وطبيعة بعضهم التي تحول بينهم وبين الاستفادة من هذه النعمة - وهي القرآن - فيقول جل وعلا:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (٥٤)

يعني: ﴿وَلَقَدْ﴾ أنعمنا على الإنسان؛ حيث ﴿صَرَّفْنَا﴾ بينا وكررنا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ﴾ جميعًا ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يفيدهم، ويوصلهم إلى الإيمان بالله.

﴿و﴾ لكن ﴿كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي: مجادلًا، ومعاندًا، حتى في الحق الواضح، بما يضر به نفسه، والجدال أوضح صفاته.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ (٥٥)

أي: ﴿وَمَا مَعَ النَّاسِ﴾ الذين كفروا ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ بالله ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾ لَمَّا جاءهم ﴿الْهُدَى﴾ وهو القرآن أو النبي ﷺ ﴿وَمَنْعَهُمْ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ كذلك، على ما كان منهم؛ إلا عنادهم، وجدا لهم، واستمرارهم على هذا العناد والجدال، حتى ﴿تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهي الإهلاك الكامل في الدنيا ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: أنواعًا متعددة متلاحقة.

ويؤكد ربنا عز وجل على طبيعة الجدال في الإنسان، فيقول تبارك وتعالى:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَمُجَادِلِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ (٥٦)

يعني: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ من عندنا إلى الناس ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ للكافرين.. ليسعد المؤمنون، ويؤمن الكافرون طوعية واختيارًا.

﴿وَمَنْ لَكِنْ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جدالًا ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الذي يتمسكون به ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ويبتطلوا ﴿بِهِ الْحَقَّ﴾ وهو القرآن، وما جاء به.

﴿وَمَنْ هَكَذَا﴾ هكذا ﴿اتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ من دلائل الإيمان ﴿وَمَا أُنذِرُوا﴾ به العذاب ﴿هُزُوًا﴾ استهزاء وسخرية.. حقًا..

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (٥٧)

بعد أن بين الله عز وجل جدال الكافرين للرسول، وعنادهم لقبول الحق؛ بين هنا صفاتهم الموجبة للخزي والخسران على النحو التالي:

الأولى: أنهم أظلم الظلمة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ الدالة على الإيمان ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ ولم يعمل عقله فيها، ولم يستجب لها، ﴿وَنَسِيَ﴾ في ذات الوقت ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الآثام والمعاصي.

الثانية: أنهم على قلوبهم أغطية ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية تمنعهم من ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: القرآن، حتى ولو فهموه لا يعملون به.

الثالثة: أنهم في آذانهم صم.. إنا جعلنا ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: ثقلاً وصمماً فلا يسمعون سماع تدبر يفيدهم.

الرابعة: أنهم لا يستجيبون أبداً للهداية ﴿وَإِنْ نَدَعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ وهو الإيمان، مهما دعوتهم ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

لا ينبغي أن يظن أحد أن هذه الحواجز التي تمنعهم من الهداية ظلم لهم، وحاشا لله من ذلك.. بل هم الذين اختاروا عدم الاهتداء بمحض رغبتهم وكامل اختيارهم، ومع ذلك، باب التوبة مفتوح، وعدم المعالجة بالعقوبة قائم، حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ (٥٨)

يعني: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ لمن تاب، على ما سبق ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ بالعمو عنه، والهداية له.. ومن رحمته لعباده: أنه ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ﴾ ويعاقبهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ من المعاصي ﴿لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا، بل قد يعفو عن المؤمنين عفواً كاملاً فيها، ولكن لا يهمل سبحانه عقاب الكافرين، وإن أمهلهم وأخرهم، ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ يعاقبون فيه، وهو يوم القيامة، الذي ﴿لَنْ يَحْدُوا﴾ ساعتهما ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: غير العذاب ﴿مَوْيلاً﴾ أي: ملجأ يهربون إليه.

ألا يعتبر هؤلاء الكفار بمن سبقهم من أهل القرى السابقة الكافرة!!! أتعرفون ما خبرها..؟

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (٥٩)

يعني: ﴿و﴾ أهل ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ السابقة وهم عاد وثمود، وغيرهما ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ في الدنيا ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بكفرهم ﴿وَجَعَلْنَا﴾ كذلك ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ هذا ﴿مَوْعِدًا﴾ لا يستأخرون عنه، ولا يستقدمون.. وقد حدث.

وعلى ذلك، فليعتبروا بهم، ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم، فهلاً يفعلون.. وهل يؤمنون..؟ هذا ويسوق الله تعالى: قصة ثالثة، وهي: قصة موسى عليه السلام والخضر. وكأنه

سبحانه يرد بها أولاً على الكفار، الذين افتخروا على فقراء المسلمين، ويقول لهم: هذا موسى نبي أوتي علماً وفضلاً وعلواً، ومع ذلك لم يتعال على أن يتواضع.. فتواضعوا.

وكأنه ثانيًا، يرد بها الكفار الذين تكبروا على الأنبياء وامتنعوا عن الإيمان، وتشبهوا بإبليس، الذي تكبر على أمر الله، وامتنع عن السجود لآدم عليه السلام؛ وأما موسى: فلم يتكبر أن يتعلم ممن هو دونه. فلا تتكبروا.. وتواضعوا والقصة - في ذات الوقت - تربية للمسلمين، وتعليم، يقول رب العزة تبارك وتعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (٦١)

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى﴾ لقومه لما سأله عن أعلم الناس، فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إلى الله، وأوحى إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم، وعرفه كيف يصل إليه، وبدأ موسى عليه السلام رحلة البحث عن هذا العبد الصالح، الذي هو أعلم منه؛ ليتعلم منه، وقال موسى عليه السلام ﴿لِفَتْنِهِ﴾ الذي كان يسير معه ﴿لَا أُبْرِحُ﴾ لا أزال أمشي ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ﴾ أصل إلى ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ هذا، وهو المكان، الذي فيه هذا العبد الصالح العالم ﴿أَوْ أَمْضِيَ﴾ سائرًا إليه ﴿حُقُبًا﴾ زمانًا طويلًا.

وسارا، موسى وفتاه للوصول إلى المطلوب..

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ (٦١)

يعني: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي: وصلا موسى وفتاه ﴿مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ أي: مجمع البحرين، وهو المكان المطلوب.. ناما و ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وتسرب حوت السمك، الذي كان معهما، الذي كان تسربه وضياعه منهما علامة على هذا المكان ﴿فَاتَّخَذَ﴾ أي: الحوت ﴿سَبِيلَهُ﴾ طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ ونزل إليه، وجعل الله الماء حول الحوت ﴿سَرَبًا﴾ أي: نفقًا في الماء، أي: تجمد الماء من حوله وصار كالنفق، ووقف الحوت - بذلك - في مكانه.

واستيقظ موسى وفتاه من نومهما، وتابعا سيرهما، وقد نسيا حوتهما.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾^(٦٢)
 أي: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ المكان المطلوب، وهو مجمع البحرين، وهو الذي فقد فيه
 الحوت ونسيه، أحسا بالتعب والجوع، وهنا ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءَنَا﴾
 لنأكل ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أي: تعبًا.

وبدأ الغلام يحضر الغداء: فاكشف فقد الحوت، فماذا فعل..؟

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ
 أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾^(٦٣)
 أي: ﴿قَالَ﴾ الفتى لموسى ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أي: أتذكر ﴿إِذْ أَوَيْنَا﴾ لجأنا ﴿إِلَى
 الصَّخْرَةِ﴾ لنستريح عندها فيما سبق من طريقنا ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ هناك ﴿وَمَا
 أَنْسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ فاعذرني، ولا تؤاخذني.
 ﴿و﴾ هكذا ﴿اتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُ﴾ طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ اتخاذاً ﴿عَجَبًا﴾
 لم يشعرا به، حين تفلت منهما بقدرة الله تعالى.

ولم يفعل موسى، ولم يغضب من فتاه، بل:

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَأَرْتَدَّا عَلَى ءِثَارِهِمَا قَصَصًا﴾^(٦٤)
 يعني: ﴿قَالَ﴾ موسى لفتاه ﴿ذَلِكَ﴾ المكان هو ﴿مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ ونبحث عنه.
 ﴿فَأَرْتَدَّا﴾ ورجعا ﴿عَلَى ءِثَارِهِمَا﴾ أي: آثار أقدامهما ﴿قَصَصًا﴾؛ ليتوصلا إلى
 نفس المكان. وعادا، ووصلا..

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءِتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾^(٦٥)
 أي: ﴿فَوَجَدَا﴾ في هذا المكان، عند مجمع البحرين ﴿عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءِتَيْنَاهُ
 رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو الخضر عليه السلام.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾^(٦٦)

يعني: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ بأدب وتواضع ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي: هل تأذن لي أن أجعل تبعاً لك، وذلك: منتهى المبالغة في التواضع والتعظيم، وذلك ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾ وأتعلم منك ﴿مِمَّا عَلَّمْتَ﴾ وعلمك الله ﴿رُشْدًا﴾ أرشد به، وأزداد علماً، حيث إن الزيادة في العلم مطلوبة؟

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ أي: ﴿قَالَ﴾ هذا العبد العالم لموسى ﴿إِنَّكَ﴾ إن اتبعتني ورأيت فعلي ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾ على ما أفعل ﴿صَبْرًا﴾. ﴿و﴾ لك العذر.. إذ ﴿كَيْفَ تَصْبِرُ﴾ وتسكت ﴿عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ من الأفعال العجيبة الغريبة، التي سوف تراها ﴿خُبْرًا﴾ وعلماً؟ ولحرص موسى عليه السلام، ولأدبه، وتواضعه..

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ ﴿٦٩﴾ لاحظوا قَدَمَ موسى عليه السلام مشيئة الله؛ ليستعين بها على تحمل الصبر على ما سيراه من عجائب الأمور، كما فهم من هذا الكلام. ﴿قَالَ﴾ موسى له ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ على قبول ما تفعل، ولا أفهم له علة، حتى تخبرني، وتعلمني، وأفهم، ﴿و﴾ حتى لو أمرتني بفعل ما لم أعرف له علة ستجدني ﴿لَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ إن شاء الله، حتى أعرف، وأتعلم. وأراد الخضر أن يثبت هذا الاتفاق، وأن يؤكد عليه.. حيث:

﴿قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ﴿٧٠﴾ أي: ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: إذا ﴿فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي﴾ وأردت العلم ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ أفعله، ولا تفهم له علة ﴿حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ﴾ في الوقت المناسب ﴿ذِكْرًا﴾ تستريح إليه، وتتعلم منه. ووافق موسى عليه السلام على ذلك.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكَبَا فِي الْسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ ﴿٧١﴾

يعني: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ مع بعضهما البعض، يمشيان على ساحل البحر ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ التي مرت بهما، فلما ركباها ﴿خَرَقَهَا﴾ الخضر، بخلع لوح أو لوحين منها، من جهة الماء، وهنا لم يتمالك موسى نفسه، ولم يصبر أمام هذا التخريب الذي سيغرق السفينة ومن فيها، إذ ﴿قَالَ﴾ للخضر على الفور ﴿أَخْرِقْهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتُ﴾ أي: فعلت ﴿شَيْئًا إِمْرًا﴾ منكراً؟ وهو هذا الذي فعلت. وذكره الخضر بالعهد الذي كان..

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢) أي: ﴿قَالَ﴾ له ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾ لك سابقاً ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾ على ما أفعل ﴿صَبْرًا﴾؟..

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (٧٣) يعني: ﴿قَالَ﴾ موسى للخضر معتذراً: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: غفلت عنه من التسليم لك، وترك الإنكار عليك فيما تفعل، ولا أفهم له سراً. ﴿و﴾ كذلك ﴿لَا تُرْهِقْنِي﴾ وتكلفني ﴿مِنْ أَمْرِي﴾ وصحبتني لك ﴿عُسْرًا﴾ ومشقة، بل عاملني بالعفو واليسر. وقبل الخضر اعتذاره وساراً معاً.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤)

أي: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ بعد خروجهما من السفينة، يمشيان ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ لم يبلغ حد التكليف، يلعب مع الصبيان؛ أمسك الخضر به ﴿فَقَتَلَهُ﴾ ذبحاً، وهكذا لم يتمالك موسى نفسه، ولم يصبر أمام هذا العدوان الظاهر على هذا الغلام بإزهاق روحه. إذ ﴿قَالَ﴾ للخضر على الفور: ﴿أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً﴾ أي: طاهرة ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: لم تقتل أحداً..؟ ثم قال: ﴿لَقَدْ جِئْتُ﴾ فعلت ﴿شَيْئًا نُكْرًا﴾ منكراً، وهو هذا الذي فعلت. فأجابه الخضر:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٧٥﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ له ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ﴾ مرتين سابقتين ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ﴾ على ما أفعل ﴿صَبْرًا﴾...؟

واعترف موسى أن ما يحدث أمامه فوق طاقته، وأعلى من إدراكه، فوق أنه لا يصبر على عدم معرفة علته، ولا يتحمل صبراً على فعله، ولكنه سيجاهد نفسه ليتعلم ولذلك:

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي فَقَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ ﴿٧٦﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ للخضر معترفاً بعدم صبره على ما يرى، وموافقاً على تنفيذ اتفاقه السابق ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩]. قال: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرة ﴿فَلَا﴾ عليك أن ﴿تُصَحِّبْنِي﴾ حيث إنك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي﴾ من قبلي ﴿عُذْرًا﴾ في مفارقتك لي. ووافق الخضر..

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿٧٧﴾

يعني: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ يمشيان ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وكان بعد الغروب في ليلة باردة ممطرة، وأحسا بالبرد والجوع، فطلبا الضيافة و ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا﴾. ولكن أهل هذه القرية كانوا بخلاء ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا﴾. وسارا خارجين من القرية ﴿فَوَجَدَا فِيهَا﴾ أي: في بيت من بيوتها ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ أي: مائلاً للسقوط والهدم، وهنا تقدم الخضر إليه ﴿فَاقَامَهُ﴾ ورممه، وأصلحه، حتى لا يسقط، ولم يتمالك موسى نفسه، ولم يصبر أمام هذا الفعل الحسن، الذي لا يستحقه أهل هذه القرية أن يفعل لهم دون مقابل: إذ ﴿قَالَ﴾ للخضر بكل أدب، بعبارة فيها تحميس على أخذ الأجرة: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

وفي هذه اللحظة، وعلى الفور..

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُوِيلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٨)

أي: ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿هَذَا﴾ وقت.. ﴿فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ وكان الفراق، وكانت نهاية الصحبة الصالحة.

يقول نبينا ﷺ: «رحم الله أخي موسى، استعجل فقال ذلك - أي: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ [الكهف: ٧٦] - ولو لبث مع صاحبه؛ لأبصر أعجب الأعاجيب».

وقبل أن يفترقا الخضر وموسى، قال الخضر لموسى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُوِيلَ﴾ أي: تفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ﴾ من الأمور التي حدثت أمامك ﴿صَبْرًا﴾، ولم تعرف علة ولا تفسيرًا.

الأمر الأول.. ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (٧٩)

أي: ﴿أَمَّا﴾ أمر ﴿السَّفِينَةُ﴾ التي خرقتها ﴿فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ﴾ عليها ويرتزقون منها ﴿فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فقط، وما أردت إغراقها؛ حيث ﴿كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ كافر وظالم ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة عند غيره ﴿غَصْبًا﴾ عنهم ولو رآها قبل أن أخرقها لأخذها منهم، وحرّمهم منها رغمًا عنهم. وكان ذلك بأمر الله تعالى.

الأمر الثاني.. ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (٨٠) ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّنْ رَكَّوهُ وَاقْرَبَ رُحْمًا﴾ (٨١)

يعني: ﴿وَأَمَّا﴾ أمر ﴿الْغُلَامُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وأما هو فقد طبع كافرًا ﴿فَخَشِينَا﴾ إن عاش ﴿أَنْ يُرْهِقَهُمَا﴾ أي: يوقعهما لمحبتيهما له، ويكلفهما ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، ﴿فَأَرَدْنَا﴾ بإذن الله وأمره أن نقتله حتى ﴿يُبْدِلَهُمَا

رَبُّهُمَا ﴿وَلَدَا﴾ حَيْرًا مِّنْهُ ﴿لَهُمَا﴾ وَأَقْرَبَ ﴿مِنْهُ لَهَا﴾ رُحْمًا ﴿أَي: بَرًّا بِهِمَا، وَعِطْفًا عَلَيْهِمَا، وَكَانَ ذَلِكَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى.﴾

الأمر الثالث.. ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

يعني: ﴿وَأَمَّا﴾ أمر ﴿الْجِدَارُ﴾ الذي أصلحته: فقد توافرت فيه أربعة أمور:
 أولاً: أنه ﴿كَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي﴾ هذه ﴿الْمَدِينَةِ﴾ وهي القرية، التي رفض أهلها ضيافتنا.
 ثانياً: أنه ﴿كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ ولو وقع الجدار لضاع عليهما ما في هذا الكنز.
 ثالثاً: أنه ﴿كَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ والله تعالى يحفظ العبد الصالح في نفسه وولده.
 رابعاً: أنه ﴿أَرَادَ رَبُّكَ﴾ لهذين الغلامين ﴿أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي: قوتهما، ﴿وَيَسْتَخْرِجَا﴾ من تحت هذا الجدار بأنفسهما ﴿كَنْزَهُمَا﴾ وذلك ﴿رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ﴾ بهما.

ثم قال له في النهاية، وتعليقاً على هذه الأمور السابقة، وتعليماً أن الأمر كله لله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ أي: كل ما سبق من: خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ واختياري، بل بأمر ربي، وتكليفه لي بذلك.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي قلت ﴿تَأْوِيلُ﴾، وتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ قبل ذلك.

ذكرنا سابقاً أن اليهود قالوا للمشركين: اسألوا محمداً عن ثلاثة أشياء، فإن أجاب عن اثنين، ولم يجب عن الثالثة، فاعلموا أنه نبي؛ اسألوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، واسألوه عن رجل طوّف البلاد وشرّق فيها وغرّب، واسألوه عن الروح. وقد نزل القرآن بإجابة هذه الأسئلة، فقال عن هؤلاء الفتية، ما ذكر في قصة أصحاب الكهف، وقال عن الروح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. وأما عن إجابة السؤال الثالث، فقد قال تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾
 يعني: ﴿قُلْ﴾ لمن يسألك عن ذي القرنين ﴿سَأَتْلُوا﴾ وأقص ﴿عَلَيْكُمْ مِنْهُ﴾
 من حاله ﴿ذِكْرًا﴾ أي: بعض أخباره.

ويلاحظ أن القرآن الكريم لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين، ولا عن زمانه، ولا
 عن مكانه، إذ لا حاجة إلى ذلك حيث إن المقصود: هو العبرة من هذه القصة، والعبرة
 تتحقق بدون ضرورة لمعرفة التفاصيل عن الشخصية، أو الزمان، أو المكان لها.
 على أية حال، من أخبار ذي القرنين التي يذكرها القرآن ما يقوله رب العزة:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾
 يعني: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ﴾ السير ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ حينما يريد ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾
 يحتاج إليه ﴿سَبَبًا﴾ أي: طريقاً يوصله إلى تحقيق ما يريد منه من الجنود، والآلات،
 وغير ذلك ﴿فَأَنْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: أخذ بالأسباب، واستعمل الوسائل التي مكنه الله منها،
 للوصول إلى ما يريد.

فلما أراد الوصول إلى مغرب الشمس، أخذ في الأسباب، لذلك:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا
 يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

أي: سار نحو المغرب ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ﴾ آخر العمران من الأرض عند المحيط،
 ورأى ﴿مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي: موضع غروبها فيما تراه عينه، و ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي
 عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: كأنها تختفي في عين طينية سوداء، ﴿و﴾ في هذا المكان ﴿وَجَدَ
 عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ أي: أمة من الأمم كافرة، وحدث بينه وبين هؤلاء القوم ما مكنه الله به
 منهم، وغلبه عليهم، وحكمه فيهم، ثم قال تعالى: ﴿قُلْنَا﴾ له: ﴿يَذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ أنت
 مخير فيهم بين أمرين ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ مَنْ ظَلَمَ مِنْهُمْ عَلَى الْكُفْرِ ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ
 فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالعفو عنهم.

وكان جواب ذي القرنين على هذا التخيير: أنه..

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

يعني: اختار ذو القرنين المعاملة بالعدل مع الكفار، حيث ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: كفر، وبقي على كفره، وأذى العباد، وأفسد البلاد ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ في يوم القيامة ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثُكْرًا﴾ أي: فظيعًا.

ثم أضاف قائلاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ بالله ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ موافقاً لشرع ربه، وأسعد العباد، وأصلح البلاد ﴿فَلَهُ﴾ عند ربه ﴿جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ﴾ نحن ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: من شرع الله الذي أمرنا به ﴿يُسْرًا﴾ أي: ما يناسب طاقته، ولا يشق عليه.

يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾

أي: أخذ في الأسباب، واستعمل الوسائل، التي مكنه الله منها؛ للوصول إلى ما يريد. فلما أراد أن يصل إلى مطلع الشمس أخذ في الأسباب لذلك، وسار..

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

أي: سار نحو الشرق ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ وهو الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من العمران، وفي هذا المكان ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ﴾ أي: تشرق ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ على أمة من الأمم ﴿لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي: بينهم وبين الشمس ما يسترهم من حرها من البيوت، أو الأشجار، أو الملابس.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: حدث بينه وبينهم ما حدث بينه وبين أهل المغرب، وحكم فيهم، كما حكم في أهل المغرب، ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود، والآلات، وأسباب القوة والنصر ﴿خُبْرًا﴾ معرفة وعلمًا، حيث نحن الذين مكنا له في الأرض، وآتيناه من كل شيء سببًا.

وبعد ذلك يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْبَعَ سَبًّا﴾ ﴿٩٢﴾

أي: أخذ في الأسباب، واستعمل الوسائل، التي مكنه الله منها، للوصول إلى ما يريد. فلما أراد أن يصل إلى مكان ثالث وهو (بين السدين) أخذ في الأسباب لذلك:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ﴿٩٣﴾

أي: سار نحو الشمال ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ﴾ الموضع الموجود ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان عظيمان متقابلان يسدان الأفق بضخامتهما، بينهما ممر ضيق، و ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ يعني: أمام هذين الجبلين ﴿قَوْمًا﴾ أمة من الأمم، منعزل أفرادها عن الناس، ولذلك ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لأحد، ولا يفقه منهم أحد قولًا، إلا بمشقة وعسر، ومترجم.

فلما اقترب منهم، واختلط بهم، سمع منهم، وفهم بصعوبة عنهم ما يقولون، ماذا قالوا..؟

﴿قَالُوا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ﴿٩٤﴾

يعني: ﴿قَالُوا﴾ له ﴿يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قبيلتان كبيرتان، تقيمان خلف هذين الجبلين، وهم جميعًا ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالنهب والبغي عند خروجهم إلينا من هذا الممر الذي بين الجبلين.

﴿فَ﴾ ما رأيك.. ﴿هَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أجرًا ومكافأة ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ﴾ بما أوتيت من علم وقوة وإمكانات ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يحميننا منهم، ويبعد عنا أذاهم..؟

ماذا فعل ذو القرنين..؟

﴿قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ﴿٩٥﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم ذو القرنين: لا أريد منكم أجرًا؛ حيث إن ﴿مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي﴾

من المال والقوة ﴿حَيْرٌ﴾ لي، مما عندكم من أجر، ومع ذلك سأجعل بينكم وبينهم سداً، تبرعاً وتطوعاً.

﴿فَاعِينُونِي﴾ وساعدوني ﴿بِقُوَّةٍ﴾ فيما أطلبه منكم لهذا العمل، وبذلك ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي: سداً حاجزاً منيعاً.

ثم وضع لهم مطالبه، حيث قال لهم:

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (٩٦)
يعني: قال لهم ثلاثة أشياء:

الأول: ﴿ءَاتُونِي﴾ هاتوا لي ﴿زُبَرَ﴾ قطع ﴿الْحَدِيدِ﴾ فجاءوه بها، وصار يرصها رصاً فوق بعضها البعض، في هذا الممر الضيق بين الجبلين العظيمين ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ﴾ بها ﴿بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ جانبي الجبلين.

الثاني: أنه أوقد ناراً على قطع الحديد هذه، و ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿انْفُخُوا﴾ في هذه النار، المشتعلة في قطع الحديد وظلوا ينفخون ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ انصهر الحديد و ﴿جَعَلَهُ﴾ هذا النفخ فيه ﴿نَارًا﴾ أي: كالنار. كان الأمر التالي، وهو:

الثالث: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿ءَاتُونِي﴾ النحاس المذاب ﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ﴾ أي: على هذا السد المني من قطع الحديد، الذي انصهر، ﴿قِطْرًا﴾ وهو هذا النحاس المذاب، حتى تتماسك قطع الحديد هذه.

وهكذا بنى السد، على يأجوج ومأجوج.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧)

يعني: لما بنى السد على هذا النحو، ما استطاعت يأجوج ومأجوج ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يصعدوا فوقه؛ لأنه عال جداً، وأملس جداً ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ أيضاً ﴿لَهُ نَقْبًا﴾ أي: خرقاً؛ لقوته، وصلابة مادته.

وبذلك: حبسوا وراء الجبلين من جهة، وسدت عليهم الشجرة التي كانت بينهما من جهة أخرى، فلا يستطيعون المرور من فوق، ولا من تحت.

وبعد أن تم البناء..

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨)
يعني: ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿هَذَا﴾ التوفيق في بناء السد ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ بالناس، حيث حال بينهم وبين أذى يأجوج ومأجوج لهم.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بخروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُ﴾ سبحانه ﴿دَكَّاءَ﴾ أي: مذكوكًا، مستويًا بالأرض، فيخرجون منه ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بخروجهم هذا ﴿حَقًّا﴾ لا يتخلف، وهكذا.. انتهت قصة ذي القرنين.

بعد أن قال رب العزة في أول السورة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ﴾ أي: نختبر أهل الأرض ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].. وبعد أن ذكر قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، ومثال الدنيا، وقصة موسى والخضر، وقصة ذي القرنين.. وكل ذلك يذكر بأمر الدنيا وزوالها، وهوان شأنها.. يعطينا رب العزة: تصورًا عن يوم القيامة.. وعلو شأن المؤمنين على الكافرين فيه؛ دعوة للاهتمام باليوم الآخر، والاستعداد له، وعدم الانشغال التام بأمر الدنيا وزينتها. فيقول الله سبحانه:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جَمْعًا﴾ (٩٩)
يعني: ﴿وَتَرَكْنَا﴾ أهل الدنيا، بما فيهم يأجوج ومأجوج ﴿بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يتصارعون، ويتنافسون، حتى تقوم القيامة.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ ساعتها النفخة الثانية ﴿فُجِعَتْهُمْ﴾ كلهم للحساب ﴿جَمْعًا﴾.

﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ (١٠٠) ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ (١٠١)

يعني: ﴿وَعَرَّضْنَا﴾ أي: وقربنا ﴿جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ أي: قريبًا واضحًا، لافحًا.

هؤلاء ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ وهم في الدنيا ﴿فِي غِطَاءٍ﴾ وعمى ﴿عَن ذِكْرِي﴾ وهدى في القرآن، فلا يهتدون به ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ له من

النبي ﷺ، لعنادهم واستهزائهم، وبعدهم عن الهداية. وفي هذا منتهى التهديد، وقوة الوضوح في الدعوة للهداية.

ثم يكون التهديد الأوضح لمن أعرض عن الذكر، واتباع ما جاء به الرسول ﷺ.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْفِ أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ (١٠٢)

يعني: ﴿أ﴾ كفر هؤلاء فحسبوا أنهم على صواب في ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ كالملائكة وعيسى، وعزير ﴿مِنْ دُوْفِ أَوْلِيَاءَ﴾، وأتركهم دون عقاب...! أبدأ.. أبدأ.. ﴿إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ﴾ هؤلاء وأمثالهم ﴿نُزُلًا﴾ ينزلون فيه ويقيمون، لا يخرجون منها أبدًا.

ثم ينبه ربنا - بمنطق الماديين - على جهل القوم بالمكسب والخسارة، فيقول لحبيبه ﷺ:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣)

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ ونعرفكم ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ يا من تتعاملون بحساب المكسب والخسارة.. أيها الماديون..؟

هؤلاء الأخسرون.. هم الذين وصفهم رب العزة بثلاثة أوصاف، في قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٠٤) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ (١٠٥) أي:

الوصف الأول: هم أولئك ﴿الَّذِينَ ضَلَّ﴾ ضاع وبطل ﴿سَعِيَّهُمْ﴾ وعملهم ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ يظنون بمنطقهم ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ويستحقون الجزاء الحسن عليه.

الوصف الثاني: هم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على توحيده تعالى وقدرته.

والوصف الثالث: هم أولئك الذين كفروا، ب ﴿لِقَائِهِ﴾ تعالى في يوم القيامة، وأنكروا البعث والحساب تمامًا.

ولذلك يقول الله تعالى: ﴿فَحِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بطلت، وضاع ثوابها حتى لو كانت صنعًا حسنًا، وكذلك ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ ولا قدرًا.

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا﴾ (١٠٦)

أي: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور، من إحباط أعمالهم، وعدم إقامة وزن لهم.. هو ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ وبالتالي: لهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ يدخلونها، بسبب أنهم ﴿كَفَرُوا﴾ بآيات ربهم ولقائه وأنهم ﴿اتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ الدالة على وحدانيتي وقدرتي، ﴿و﴾ اتخذوا ﴿وَرُسُلِي﴾ الداعين إلى الإيمان بي ﴿هُزُؤًا﴾ يسخرون منهم، ويستهزئون بهم.
وبعد أن ذكر المولى سبحانه أن الكفار منزلهم جهنم، وهددهم بذلك، وخوفهم منه، يذكر المؤمنين مبشرًا لهم بمنزلهم الحسن، وهو الجنة. فيقول المولى عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (١٠٨)

يعني: إذا كان الكفار كما ذكرنا، فـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ وهو وسط الجنة وأحسنها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها. وكذلك ﴿لَا يَبْغُونَ﴾ أي: يطلبون ﴿عَنْهَا حِوَلًا﴾ أي: تحوّلًا عنها، وانتقالًا منها.

هذا، ولَمَّا قال القرآن عن اليهود الذين أوعزوا للكفار أن يسألوا النبي ﷺ عن الروح ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقال اليهود: لقد أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء..!! أنزل الله عز وجل. قوله تعالى:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١٨٩)

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء وهؤلاء: ﴿لَوْ كَانَ﴾ ماء البحر كله ﴿مِدَادًا﴾ أي: حبرًا، كتابة ﴿لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ الدالة على آياته، وحكمه، وعجائبه ﴿لَنَفِدَ﴾ ماء البحر، أي:

انتهى ﴿قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ﴾ وتنتهي ﴿كَلِمَتُ رَبِّي﴾، حتى ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ أي: بمثل هذا الماء، ﴿مَدَدًا﴾ أي: ماء آخر، وثالث ورابع إلى ما لا نهاية.. لما نفذت كلمات ربي كذلك.

وما ذلك إلا لأنها من عند الله، وليست من عند محمد ﷺ، كما يزعمون. ولذلك:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۚ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا﴾ (١١٠).

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أعلم الغيب، ولكن ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾ الذي يجب توحيده وعبادته ﴿إِلَهُ ۚ وَاحِدٌ﴾.

ولذلك: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا﴾ أجرًا حسنًا عند ﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ في يوم البعث ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ يُسعد به العباد، ويُصلح البلاد، ويتوافق مع شرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. وعلى ذلك، فكل ما أخبرتكم به، فهو من عند الله، وكل ما أمرتكم به، فهو من الله عز وجل.
